نظرية الملاءمة:نظرية ثورية في التواصل

المقولات والامتدادات المفهومية

د.عائشة هديم

جامعة بومرداس

Résumé: Cet article ce propose d'exposer les grands axes de la théorie de la pertinence , du grand Anthropologue français: "Dan sperber" .
L'intérêt a cette théorie provient de son génie grandiose a expliquer et analyser les phénomènes cognitives humains, dans leurs larges aspects (culturelles, sociales, psychologiques, linguistiques).
Cette première partie théorique sera suivie d'une analyse cognitive de certains phénomènes littéraires, sur la base des concepts de la théorie de la pertinence.

الملخص: يعنى هذا المقال بتقصي مقولات نظرية الملاءمة وامتداداتها المفهومية، عبر حقول معرفية واسعة بدءا بالتداولية المعرفية إلى الأنثربولوجيا المعرفية، إلى علم النفس المعرفي. إن مفهوم الملاءمة مفهوم ثوري،أعاد النظر في فهم عملية التواصل، وميكانزمات التأويل، وأدرج مفاهيم نفسية ذهنية في اللغة .و سيحاول هذا المقال سبر أغوار هذا المفهوم على أن نأتي في مقال آخر لمقاربة ظواهر أدبية ونقدية بالاستعانة بهذا المفهوم.

مقدمة:قدم "دان سبربر" و"دايدر ويلسن" في كتابهما المشترك الموسوم ب:"الملاءمة – التواصل والمعرفة–" نموذجا تفسيريا متفردا للتواصل. وقد صبغ هذا النموذج من الصفحة الأولى للكتاب بصبغة معرفية عميقة، حيث اتخذ من الأفكار والتمثلات التي تحدث في أذهان الناس عندما يتواصلون، قاعدة لتفسير التواصل.

يستهل "دان سبربر" و"دايدر ويلسن" طرحهما بالسؤال عن ماهية التواصل، ويذهبان إلى عده تعديلا للمحيط الفيزيائي للآخر، حيث تتكون لدى طرفي التواصل التمثلات نفسها[1].

هذا السؤال دفع الكاتبان إلى طرح جملة من الإشكاليات:

1/ ما هو الشيء الذي نبلغه؟

2/ كيف يتم هذا التبليغ؟

3/ كيف يمكن لمنبه فيزيائي(كلام)، ينتجه فرد ويدركه فرد آخر أن يجعل أفكار الفرد الآخر مشابهة للأول، مع أنه لا توجد أدنى مشابهة بين المنبه والأفكار؟

يجيب الكاتبان إجابة مبدئيةذات صبغة معرفية، حيث يذهبان إجابة على الإشكالية الأولى أن ما يبلغ هو مجموعة أفكار (تمثلات لتصورات)، وفرضيات (تمثلات للواقع). وأما جوابهما على الإشكالية الثانية والثالثة، فهو أن النظريات من أرسطو إلى اليوم قامت على نموذج **السنن**، في حين طرح فلاسفة اللغة **النموذج الاستدلالي**، أما الكاتبان فيطرحان نموذجا جديدا وهو:**الملاءمة**[2].

قبل أن يستعرض الكاتبان هذا النموذج الجديد، يفصلان في نموذج السنن عرضا ونقدا.

I / الملاءمة واللغة:

1/ نموذج السنن: المقولات والانتقادات: كما هو دأب الكثير من النظريات الساعية لطرح نماذج تفسيرية جديدة، ذهب "سبربر" و"ويلسن" قبل استعراض نموذجهما التواصلي الجديد القائم على مبدأ الملاءمة – إلى عرض تفصيلي لمجمل النظريات التي فسرت عملية التواصل على أساس مبدأ السنن، ثم عمدا إلى نقدها عموما، حيث عدا أن السيئة الأساسية لنموذج السنن هو أنه لا يمكننا اختزال الفهم اللغوي في فك السنن البسيط للعلامة اللغوية[3] ثم تفصيلا من خلال ثلاث نقاط:

1/ صحيح أن اللغة عبارة عن سنن يربط بين تمثلات صوتية وأخرى دلالية ولكن التمثلات الدلالية للجملة قاصرة على أن تتطابق مع الأفكار المبلغة.

2/ إننا ننتقل من التمثلات الدلالية إلى الأفكار المبلغة لا من خلال السنن ولكن من خلال استدلالات.

3/ إن نموذج السنن ليس هو الوحيد لشرح عملية التواصل، إذ يمكن أن نوصف التواصل بوصفه سيرورة استدلالية للتعرف على مقاصد المتكلم[4].

1-1 -المعرفة المشتركة تسويغ تداولي لنموذج السنن:

بعد نقدهما للنظريات التي تبنت نموذج السنن،لا سيما نظرية النحو التوليدي[5]، انتقل "سبربر" و"ويلسن" إلى صنيع بعض التداوليين الذين سوغوا نموذج السنن بإضافة مستوى تداولي إلى المستوى اللساني، حيث انتقدا هذا الاتجاه بحجة أن السيرورات الاستدلالية (التي تتخذ مجموعة من المقدمات نقطة بدء تفضي إلى جملة من النتائج المضمنة فيها بصورة منطقية)، مختلفة عن سيرورات فك السنن، التي تتخذ العلامة نقطة بدء، وإعادة تشكيل الرسالة المتصلة بالعلامة من خلال السنن نقطة نهاية[6]. ولكنهما في- حركة جدلية- يعودان إلى طرح إمكانية الجمع بين هاتين السيرورتين من خلال مفهوم **المعرفة المشتركة.**

يقوم هذا المفهوم على فكرة أساسية مفادها أن المتخاطبين يتوصلون إلى أن يكون لهم لغة مشتركة ومقدمات مشتركة، يطبقون عليها قواعد استدلال متطابقة، والمثال الواضح على ذلك هو أن الأطفال الذين تربوا في المجتمع نفسه، وعلى الرغم من التجارب اللسانية المختلفة، فإنهم يستعملون أنحاء متشابهة (والرصيد النحوي نفسه)[7].

لكن هذا النموذج أيضا قاصر عن تفسير عملية التواصل، ذلك أن أعضاء المجموعة اللسانية نفسها، وإن كانوا يشتركون أو يتقاربون من حيث القدرات

اللسانية والاستدلالية، فإنهم بالمقابل يختلفون في فرضياتهم حول العالم، ذلك أن الاختلاف في تجارب الحياة، ينتج معارف مختلفة.[8]

2/نموذج غرايس:وجه "سبربر" و"ويلسن" جملة من الانتقادات لنموذج "غرايس"، ولكننا في عرضنا هذا سنركز على النقاط الإيجابية التي استلهاماها منه.

1/ التعرف على القصد: إن التعرف على مقاصد المتكلمين من النشاطات المعرفية العادية، ومن ثم فإن القدرات الاستدلالية التي يستخدمها الناس لإسناد مقاصد لبعضهم بعضا كافية لجعل التواصل ممكنا حتى في غياب السنن وبالفعل فإن التواصل دون سنن موجود[9].

2/إن فعل التواصل نفسه يقتضي انتظارات، هذه الانتظارات هي التي سيستغلها فعل التواصل، وقد اعتبر "سبربر" و" ويلسن" أن هذه الفكرة هامة جدا، لأنها يمكن أن تطور تحليل التواصل الاستدلالي إلى نموذج تفسيري[10].

إن سبربر وويلسن لا ينكران وجود معرفة مشتركة، فالبشر يشتركون في الفضاء الفيزيائي نفسه، ولكن تمثيلهم الذهني لهذا العالم مختلف نتيجة اختلافاتهم في الفضاءات الفيزيائية المحلية والقدرات الذهنية التصورية[11]، ومن ثم سيركزان على القدرات الذهنية التصورية التي تقوم على وقائع وعلى **الوسط المعرفي**.فما هو **الوسط المعرفي؟**

أ/**الوسط المعرفي لفردين:**هو تقاطع لوسطيهما المعرفيين الشاملين، أي جملة كل الوقائع **البارزة** لديهم، ولكن بما أن القدرات الذهنية متفاوتة، وتمثلات الأشخاص للفضاء أو للوسط مختلفة فإن الأفراد لا يشتركون سوى في فضاءات معرفية جزئية[12].

ب/ الفرضيات المشتركة البارزة: ومفاده أن كل الفرضيات التي تكون واضحة بالنسبة لأحد المتخاطبين، تكون أيضا واضحة بالنسبة للآخر[13].

3/تفسير عملية التواصل: تفسير النجاح لا الفشل

يرى "سبربر" و"ويلسن" بأن التواصل يعرف مطبات وفشلا، ولكن هذا شيء طبيعي، ومن ثم فإن ما يجب تفسيره هو ليس عوامل فشل التواصل، بل عوامل نجاحه[14]. ويفسر "سبربر" و"ويلسن" نجاح التواصل بقدرة المتخاطبين على **مضاعفة الفرضيات البارزة بالنسبة للآخر**[15]. وسعى كل منهما إلى الدفاع عن فكرة أن المعرفة الإنسانية خاضعة لاعتبارات **الملاءمة**، ومن ثم فإنه يكفي أن نعرف الفضاء المعرفي للآخر، لكي نستدل على الفرضيات التي لها حظوظ أكبر ليضعها الآخرون[16].

4/ما يبلغ هو الدلالة: بعد إجابتهما على السؤال الجوهري: كيف نبلغ؟ بتبني نموذج الاستدلال، أي أننا نبلغ من خلال عمليات استدلالية، ينتقل "سبربر" و"ويلسن" إلى الإجابة عن سؤال جوهري آخر وهو: ما الذي نبلغه؟ ويرى "سبربر" أن ما نبلغه هو **الدلالة**، ولكن مفهومه للدلالة يختلف جذريا عن مفهوم التداوليين.

لقد اعتبر التداوليون أن التواصل اللغوي للدلالة **الصريحة** هو النموذج العام للتواصل[17]، ولكن سبربر يعتبر أن هذا التصور فيه خلل، ذلك أن بعض المظاهر الرئيسة للتواصل اللغوي **الضمني يسكت عنها**.

إن التداوليين يفترضون أن ما هو مبلغ من خلال الملفوظ هو ما يريد المتكلم قوله[18]، في حين يرى "سبربر" أنه ينبغي التمييز بين "الدلالة " والتواصل، وأن نقرّ بأن شيئا ما قد بلغ دون أن يكون قد دل، ومن ثم فإن القصد **الإخباري**:هو قصد لتغيير الوسط أو الحقل المعرفي للمخاطب.

يقترح "سبربر" هذه الصياغة **للقصد الإخباري:** ينتج المبلغ حافزا من خلال القصد الإخباري بأن يجعل مجموعة من الفرضيات بارزة أو أشد بروزا عند المستمع. والقصد– من منظوره– حالة نفسية، ومحتواه يجب أن يمثل ذهنيا، بحيث أن المبلغ يجب أن يكون لديه تمثيل لجملة الفرضيات أ، التي يريد أن يجعلها بارزة أو أشد بروزا عند المتلقي[19].

إذا كان "سبربر" و" ويلسن " يتبنيان نموذج الاستدلال، فما هو الاستدلال، وما هو شكله الأساسي؟

يتبنى "سبربر" فكرة مفادها أن الفهم **سيرورة استدلالية غير برهانية،** تستعمل– وبكل حرية– كل المعلومات المحتواة في **الذاكرة التصورية**[20]. لقد وجه "سبربر" عنايته القصوى لدراسة ما سماه:**الاستدلال غير البرهاني العفوي،** فهو– حسبه– ومن وجهة نفسية أكثر أهمية من التقنيات العلمية التي يتعلمها العلماء بكثير من الدقة[21]. قبل أن نأتي إلى شرح هذا المصطلح، يجب أن نفهم أولا معنى **الاستدلال.**

يعرفه كما يلي: "سيرورة يتم عبرها قبول فرضية بوصفها صحيحة أو محتملة الصحة انطلاقا من فرضيات أخرى تم قبول صحتها أو احتمال صحتها منذ البدء "[22].أما الاستدلال غير البرهاني العفوي فيحدد "سبربر" جملة من الخصائص التي يتميز بها:

1/ إن الاستدلال غير البرهاني شكل من أشكال الخيال الواقعي، وهو خاضع لإلزامات مناسبة أكثر من كونه سيرورة منطقية، ومن ثم فإن سبربر لا ينظر إلى الاستدلال غير البرهاني من حيث السلامة المنطقية، ولكن ينظر إليه من حيث النجاح والفعالية.

2/ إن القواعد المنطقية الوحيدة التي يملكها-وبعفوية- العقل الإنساني هي القواعد **الاستنتاجية** التي تؤدي دورا أساسيا في الاستدلال غير البرهاني.

3/إن التعرف على الضمنيات في الملفوظ، يمثل حالة نموذجية للاستدلال[23].

5/الاستدلال غير البرهاني وتأكيد الفرضيات والملاءمة:

يرى "سبربر" أن التوصيف الدقيق لسيرورة الاستدلال غير البرهاني يضيء دور الملاءمة في التواصل والفهم، ويجيب على سؤالين هامين:

1/ فيما تكمن سيرورة بناء الفرضيات وتأكيدها(التي تدور حول مقاصد المتكلمين)؟

2/ فيما يكمن تحسين تمثيلنا للعالم؟[24]

يقوم تمثيلنا للعالم على جملة من الفرضيات الواقعية، بعضها فرضيات أساسية، وبعضها الآخر تعبر عن سلوكات متنوعة إزاء تمثلات قضوية وغير قضوية متضمنة.

إن الفرضيات الواقعية تشكل بامتياز المجال الذي تطبق فيه سيرورة الاستدلال غير البرهاني العفوية.إن كل فرضية واقعية جديدة تتوالف مع جملة من الفرضيات السابقة لكي تستخدم نقطة انطلاق لسيرورة استدلالية بهدف تعديل تمثيل الفرد للعالم أو تحسينه[25].

يعتمد "سبربر" على مفهوم: "**التأكيد**": وهو القدرة على الحكم على معقولية فرضية ما، من خلال امتلاكها لخاصية **غير منطقية وظيفية، هي خاصية القوة: قوة الفرضيات**[26].

6/ مبدأ الملاءمة: يقوم هذا المبدأ على فكرة مفادها أن: كل فعل تواصل إشاري يبلغ افتراض ملاءمته القصوى[27].

6-1 – شروط الملاءمة:يصوغ سبربر شرطين لملاءمة المعلومة:

الشرط الأول: يجب أن يكون للمعلومة **آثار سياقية.**

الشرط الثاني: كلما كانت **الآثار السياقية كبيرة**، كلما كانت **الملاءمة كبيرة**[28].

6-2 – درجات الملاءمة:

يضيف "سبربر" إلى معيار الآثار السياقية، معيار **الجهد المبذول** لمعالجة المعلومات للحصول على آثار سياقية، فكلما كان الجهد المبذول لمعالجة المعلومات كبيرا، كلما كانت الملاءمة **ضعيفة**[29].

6-3-الملاءمة والسياق:يقدم سبربر وجهة نظر **مختلفة** للسياق، فالسياق عنده ليس محددا مسبقا، إنه مفتوح على خيارات وعلى مراجعات على امتداد سيرورة الفهم[30].

إن السياق **مختار**، ويتحدد هذا الاختيار من جهة من خلال مضمون الذاكرة العامة قصيرة المدى والذاكرة الموسوعية، ومن جهة أخرى من خلال المعلومة المدركة فوريا في المحيط الفيزيائي.

هذه العوامل لا تحدد سياقا واحدا، ولكن جملة من السياقات الممكنة، وما يحدد سياقا دون آخر هو مبدأ **الملاءمة**[31].

7/ مهمة اللغة هي المعرفة لا التواصل: إن لما طرحه "سبربر" في نظرية الملاءمة نتائج تنسحب على دراسة التواصل اللغوي. ولعل أهم نتيجة هي رفض القول بالعلاقة الحميمة بين التواصل واللغة، وبأن مهمة اللغة هي: التبليغ أو التواصل. وإن اللغة عنده أداة أساسية لمعالجة المعلومة وتخزينها، فالنشاط الوحيد الذي لا يمكنه أن يتخلى عن اللغة هو المعرفة وليس التواصل[32].

يخلص "سبربر" إلى أن التواصل اللساني يتم من خلال نوعين من السيرورات:

1/ سيرورة قائمة على السنن وفك السنن.

2/ سيرورة قائمة على الاستدلال والإشارة.

السيرورة الأولى ليست مستقلة بنفسها، فهي مرتبطة بالسيرورة الاستدلالية، في حين يمكن للسيرورة الثانية أن تستقل بنفسها، وهي تشتغل بالطريقة نفسها في الحالتين[33].

II-الملاءمة والأنثربولوجيا

1-1-الملاءمة وانتشار التمثلات:

سعى "سبربر" لتسويغ مفهوم الملاءمة– الذي يعتبرمفهوما مركزيا في نظريته التواصلية –وذلك بتعزيز قوته التفسيرية في علوم عديدة، وباعتبار توجهه الأنثربولوجي فهو أنثربولوجي فرنسي بارز، ربط " سبربر" مفهوم الملاءمة بمفهوم مركزي في نظريته الأنثربولوجية، وهو مفهوم: " **وبائية التمثلات**". وقبل أن نكشف عن الرابط بين المفهومين، نأتي أولا إلى شرح المقصود بمفهوم:"**وبائية التمثلات**".

ولنبدأ بشرح مفهوم " التمثلات ": يميز " سبربر" نوعين من التمثلات:

1/ التمثلات الذهنية: تشمل **التمثلات الذهنية:** الاعتقادات، والمهارات، والمشاريع، والمقاصد[34]، والأقوال، والطقوس[35]

.2/ **التمثلات العامة:** تشمل التمثلات العامة: الأدلة، والملفوظات، والنصوص، والصور، وتتخذ مظهرا ماديا[36].

1-2-تعريف وبائية التمثلات l'epidémiologie des representation l

ويعرفها في مقاله الموسوم ب: "الفردانية المنهجية " كما يلي: بالمعنى الأكثر عمومية، هي دراسة توزيع الظروف الخاصة في مجتمع، والسيرورات التي تسبب هذا

التوزيع.بحيث يمكن للظروفالظروف المدروسة يمكن أن تكون فيزيولوجية ومرضية، مثلما هو الحال في علم الأوبئة الكلاسيكي، ويمكن أن تكون ذهنية وعادية[37].

إن المجتمع الإنساني–حسب سبربر–مأهول بمجموعة أكثر اتساعا من التمثلات الذهنية من كل الأنواع: اعتقادات، ومهارات، ومشاريع، ومقاصد...الخ، فالسلوكات الفردية مخارج لسيرورات ذهنية، وتسببها جزئيا التمثلات الذهنية للفرد.

إن سلوك فرد يمكن أن يكون محل إدراك من قبل الآخرين (كما هو الحال في المشي أو القول)، أو يمكن أن يترك آثارا قابلة للإدراك (كما هو الحال في آثار الخطوات أو الكتابات).

يسمي" سبربر"هذه السلوكات وآثار هذه السلوكات: " **الإنتاجات العامة** ".

إن الانتاجات العامة للفرد يمكن أن تزودنا بمدخل للسيرورات الذهنية للفرد أو لعدة أفراد آخرين، وبصفة خاصة، لبناء التمثلات الذهنية عندهم،.

هذه التمثلات يمكن بدورها أن تسبب إنتاجات عامة، والتي يمكن أن تسبب بناء تمثلات ذهنية عند أفراد وهكذا دواليك.

إذن فالمجموعة الإنسانية تجتازها سلاسل سببية حيث تتعاقب تحولات ذهنية وتحولات محيطية بحيث أن بعضها تسبب الأخرى[38]. إذن ف"سبربر" يعتبر الظواهر الاجتماعية مثل الظواهر الوبائية، يقول: "أذهب إلى القول بأن الظواهر الاجتماعية هي بالمثل سلاسل سببية لأحداث ذهنية داخل الأفراد، ولأحداث في محيطهم المشترك، هذه الأحداث المحيطية هي سلوكات وآثارمثل حركة الأشياء والأشخاص"[39].

1-3-تسويغ طبيعي ثقافي لمفهوم وبائية التمثلات: سعى "سبربر"- كما هو دأبه مع الكثير من المفاهيم – إلى تقديم تسويغ أعمق وأقوى لمفهوم "وبائية التمثلات"، وذلك بتنزيله في قلب نظريته الطبيعية للثقافة.

إن التصور الطبيعي البالغ التأثير على فكره، جعله يتصور الثقافة مادة مصنوعة من الأفكار المعدية، وجعله يجعل للفكرة تأثيرا على السلوك أوالفعل، وهذا السلوك بدوره يؤثر على الفكر.

إن فكرة "دان سبربر" بسيطة للغاية، ويشرحها كما يلي: " إن دماغ كل فرد مأهول بعدد كبير من الأفكار التي تحدد تصرفاته، وهكذا فإن دماغي مأهول بعدد كبير من الأفكار....بأفكار حول الثقافة قادتني إلى كتابة هذا الكتاب.

إن بعض تصرفات الفرد،أو بعض الآثار التي تتركها التصرفات في المحيط، تلاحظ من قبل الآخرين، وهكذا أنت بصدد قراءة هذا الكتاب، الذي يعتبر أثرا للكتابة.

إن ملاحظة التصرفات أوآثارها، يولد أفكارا، مثل الأفكار التي تتبادر إلى أذهانكم في هذه اللحظة ذاتها، وقد تتشابه الأفكار التي أثارت التصرفات، والأفكار التي أثارها التصرف في أدق التفاصيل.

من خلال سيرورة مادية مثل التي ذكرتها للتو(يقول سبربر)، تولد فكرة في دماغ فرد، يمكن أن يكون لها في أدمغة أفراد آخرين مخلفات ....تشبهها، فالأفكار لا تبلغ فقطمرة واحدة ولكن بتبليغها من جديد من قبل أولئك الذين يتلقونها، يمكن أن تنتشر.

إن بعض الأفكار: مثل:الاعتقادات الدينيةدينية ، ووصفات الوصفات مطبخ، أو الفرضيات الفرضيات علمية مثلا تنتشر ولو عبر نسخ مختلفة، فهي تكتسح مجتمعات بأكملها بطريقة دائمة" [40].

1-4- مادة الثقافة مما تتكون الأشياء الثقافية؟ يرى "سبربر" أن الثقافة مصنوعة في المحل الأول من هذه الأفكار **المعدية**،ومن كل التصرفات (الأقوال، والطقوس،....)، وكل الإنتاجات (كتابات، أعمال، أدوات....)، التي يسمح حضورها في المحيط المشترك للمجموعة الإنسانية، للأفكار أن تنتشر.

إن شرح الثقافة، هو أن تشرح لماذا وكيف تكون بعض الأفكار معدية، ومن أجل ذلك يجب بلورة وبائية تمثلات حقيقية[41].

1-5-التمثلات المعدية والناجحة: ذهب "سبربر" في نظريته الطبيعية للفكر إلى أن بعض التمثلات تنجح في الانتشار عبر الأجيال إلى أن تستقر تماما في المجتمعات.

هذه الدعوى تثير إشكالية أساسية: لماذا تبقى هذه التمثلات والممارسات الناتجة والمسببة لها ثابتة ومستقرة ؟

وللإجابة على هذه الإشكالية يلجأ "دان سبربر" إلى مفهوم الملاءمة، حيث يربط مفهوم وبائية التمثلات بالملاءمة، وقد أعلن في مقدمة كتابه الموسوم: "**عدوى الأفكار**" عن هذا الربط: "إن أحد أهدافي هو الربط بين نظرية للملاءمة ووبائية التمثلات"[42]. كيف ربط "سبربر" بين المفهومين ؟

يهدف مفهوم "الوبائية "– كما طرحه سبربر – إلى شرح الظواهر الثقافية الكبرى من خلال الربط بين نوعين من الميكانزمات الصغرى: الميكانزمات الفردية لتكوين التمثلات الذهنية وتحويلها، والميكانزمات ما بين فردية، والتي تنقل

التمثلات من خلال تحويلات للمحيط[43]. في إطار سيرورة النقل – هذه – تتحول التمثلات، ولكنها لا تتحول بطريقة عشوائية، بل باتجاه مضامين تتطلب **جهدا ذهنيا أقل**، وتؤدي إلى **آثار معرفية أكبر**[44].

1-5-1- سهولة التذكر: تترجم فكرة الجهد الأقل، من خلال سهولة تذكر تمثلات بعينها، إذ يفسر "سبربر" سبب انتشار أساطير بعينها، واضمحلال أخرى بأنها أكثر قابلية للتذكر، وتعود سهولة التذكر إلى طبيعة المجتمع، ففي المجتمعات الشفوية يكون التعلم تقريبا شفويا، وتكون التمثلات مبنية ومحفوظة، ويعاد تفعيلها دون جهد يذكر.

على هذا الأساس يسن "سبربر" قانونا للوبائية يطبق على مثل هذا المجتمع بالصيغة التالية:" في مجتمع ذو تقاليد شفوية: كل التمثلات سهلة التذكر، أما التمثلات صعبة التذكر فلا تبلغ مستوى ثقافيا من التوزيع، ذلك أنها إما أن تنسى أو تتحول إلى تمثلات أكثر سهولة للتذكر[45].

من الواضح إذن أن فكرة انتشار التمثلات مرتبطة بسهولة التذكر.إلى جانب تفسير مبدأ الملاءمة لانتشار التمثلات، يمكن لهذا المبدأ أن يفسر سبب استمرار الممارسات المتكررة.

1-5-2- ممارسات متكررة ولكن ملائمة: يقدم لنا "سبربر" جملة من الأسباب التي تجعل ممارسات ثابتة ومتكررة على مر الأجيال تحافظ على استمراريتها وملاءمتها.

1-5-2-1-/ الأثر الملائم: أما السبب العام فهو أن الممارسة المتكررة يمكن أن تبقى ملائمة لأن آثارها ملائمة،وقد رأينا، في سياق استعراضنا للمبدأين اللذين

تقوم عليهما نظرية الملاءمة وهما: الجهد والأثر، أنه كلما كان الأثر أكبر كانت الملاءمة أكبر.

يضرب لنا "سبربر" مثالا على الممارسات المستمرة والمتكررة بسبب آثارها الإيجابية الكبيرة بالممارسات التكنولوجية: هذه الممارسات مستمرة لأن آثارها الاقتصادية (الإيجابية طبعا) تمس رفاهية الأفراد، بل وبقاءهم.

1-5-2-2: التنافس:السبب الثاني الذي يطرحه "سبربر"لاستمرار الممارسات المتكررة وملاءمتها هو أنها تكون في **تنافس** مع ممارسات أخرى.

إن اختيار فرد بعينه، في زمن بعينه لممارسة دون الممارسات الأخرى، يمكن أن يكون غني الدلالة في عواقبه، إذ تبقى الممارسة ملائمة، لأن أفرادها المختلفين في تنافس من أجل أن يحظوا بشرف ممارستها، ويكون نجاح أحدهم أو الآخر غني الدلالة بنتائجه. يضرب لنا "سبربر" في هذا السياق مثالا بالممارسات الطقوسية التي تكون علامة على تبوأ مكانة مرغوب فيها.

يمكن أن تبقى الممارسة **المتكررة ملائمة**،لأنها ودون أن تغير بوضوح **شكلها العام (تمثلها العام)**، فإنها تكون قابلة لتأويلات مختلفة حسب الفاعلين والظروف، أو اللحظات في سيرورة الحياة.

1-5-2-3- الحفاظ على الشكل العام:بالإضافة إلى هذين السببين، تبقى الممارسة المتكررة ملائمة، لأنها وعلى الرغم من قبولها لتأويلات مختلفة حسب الفاعلين والظروف أو الأوقات، فإنها لا تتغير في شكلها العام[46].

III-الملاءمة والمنظومية وانتشار التمثلات

1/منظومية معممة تطورية ثقافية تنافسية ملائمة: يقوم تصور "سبربر" للمنظومية على منظومية معممة، فهو يرفض تصور"فودور" الذي يقابل بين

سيرورات منظومية معرفية غير عقلانية، وسيرورات مركزية عقلانية[47]. ويرى أن الذاكرة منظمة على شكل وحدات من المعلومات الملائمة بوصفها مفاهيم، فالإنسان يتمتع عفويا بقدرة عقلية على التعرف على المعلومة الملائمة[48].

يتبنى" بربر" فكرة مفادها: أن عددا كبيرا من المفاهيم الإنسانية، تشكل بصفة فردية منظومات صغرى، ونظرا لتعدد المنظومات المفهومية، فإن ترابطاتها مع المنظومات الإدراكية يمكن أن تكون بدورها عديدة جدا[49].

1-1-تفاعل معقد بين المنظومات المفهومية والمنظومات الإدراكية: على عكس المعمارية الذهنية التي يتبناها " فودور"، والتي تفصل بين عمليات الإدراك والمعرفة[50]، فبموجب خاصية **الانغلاق المعلوماتي** التي تقوم على الفكرة الآتية: " على الرغم من إمكانية حدوث السيرورة الارتجاعية، وهي سيرورة تنطلق من الأعلى إلى الأسفل حيث تؤثر من خلالها معلومة محتواة في تمثل ينتمي لمستوى عال على تمثل ينتمي لمستوى أدنى فإن العمليات التي تقوم بها الأنظمة الطرفية لا تتأثر بهذا النوع من الارتجاعية [51].

ثمة لانفاذية **معرفية للإدراك** أي أن مخرج الأنظمة الإدراكية لا يتأثر باعتقادات الجسم ورغباته، فلكي يكون للجسم إدراك ناجح وفعال،يجب أن يسمح بالنظر إلى العالم كما هو لا كما يريد أن يراه فالأجسام التي تتخذ الرغبات حقائق لا تعيش طويلا[52].

على عكس هذه المعمارية، يتصور "سبربر" شبكة معقدة من المنظومات المفهومية، بعضها يتلقى مداخلها من المنظومات الإدراكية، وبعضها الآخر يتلقى على الأقل جزءا من مداخلها من منظومات مفهومية وهكذا[53]. ويتصور نظاما غنيا بمنظوميته يدرج المعلومات بطرق عدة، بحيث يحدد وجود مفاهيم بعينها في تمثل

بعينه ما المنظومات التي ستفعل من خلال هذا التمثل، وما العمليات الاستدلالية التي ستحدث[54].

1-2- المنظومات تطورية مرتبطة بالمحيط:

ثم إن هذه المنظومات تطورية، مرتبطة بالمحيط، فالبناء المنظومي- عند سبربر- أثر للتطور البيولوجي، الذي يستجيب تدريجيا للتحديات التي يعرفها المحيط[55].

والمنظومات مرتبطة بالمحيط، إذ لا يتم تحديد مجال منظومة ما بالوقوف فقط على ترابطاتها داخل الدماغ، بل يجب أن نعرف صلاتها بالمحيط. هذه التفاعلات مع المحيط هي التي تحدد عبر فترة زمنية مجال منظومة معرفية.

يميز سبربر بين نوعين من المجالات:

أ/ **المجال الفعلي / الحقيقي:** يضم مجموع المعلومات في محيط الجسم الذي يستطيع أن يوفي بشروط المنظومة.

ب/ المجال الخاص: يضم مجموع المعلومات التي تعالجها المنظومة باعتبارها من مهامها البيولوجية، ولكن ما تعالجه المنظومات فعليا، هي المعلومات التي تتواجد في مجالها الحقيقي / الفعلي، سواء كانت تنتمي لمجالها الخاص أم لا[56].

على أن المجال الفعلي للمنظومات المعرفية، يميل لأن يصبح أكثر اتساعا من مجالها الخاص، ذلك أن المجالات الفعلية تميل لأن تكون منظمة جزئيا، ومصنفة من قبل البشر أنفسهم، وثمة احتمال كبير لأن يتضمن الميدان الفعلي لكل منظومة معرفية إنسانية كمية كبيرة من المعلومات الثقافية التي توفي بشروط مداخلها، وهذا أثر للسيرورة الاجتماعية لتوزيع المعلومة.

ولشرح هذه الفكرة (اتساع المجال الفعلي الحقيقي أكثر من المجال الخاص) يقدم لنا "سبربر" مثالا يقارن فيه بين الاشتغال المنظومي لذهن الصغير عند الإنسان والحيوان.

هاهو الطفل الصغير في مهده، مزود بفهم ساذج، ولكنه متخصص ومنظومي للعالم الفيزيائي.

يتشكل الميدان **الخاص** لهذه المنظومة من مجموع الأحداث الفيزيائية التي تحدث في الطبيعة، والتي يكون فهمها جوهريا لبقاء الجسم.

بالمقابل يقر "سبربر" بوجود هذه المنظومة – منظومة الفيزياء الساذجة – أيضا عند الحيوان، ويمثل بصغار الشمبازي الذين يتفاعلون مع السقوط الفجائي لفاكهة أو غصن أو موزة ملقى بها جانبا....، ولكنه – وكما يسجل "سبربر" – يمكن أن تفوت صغير الشمبازي الحركات غير المنتظمة لسقوط ورقة، في حين أن منظومة صغير الإنسان ليست فقط منبهة من خلال أحداث فيزيائية اعتباطية، ولكنها منبهة أيضا من خلال: "لوحة نشاطات" مثبتة إلى جانب مهده، ومن خلال لعبة موسيقية موجودة فوق رأسه،... ومن خلال ألعاب تربوية. إن ما يجعل الإنسان مميزا هو أن البشر يمكن أن يغيروا محيطهم الخاص بوتيرة لا يمكن للانتخاب الطبيعي أن يتبعها[57].

2/المنظومية التنافسية في إطار تصور انتشار التمثلات: ضمن المنظور الوبائي، يذهب " سبربر" إلى أن كل المعلومات التي يدرجها الناس في محيطهم المشترك تتنافس للولوج إلى الأزمنة والأمكنة الخاصة والعامة[58].

ويبدو أن العامل النفساني – الأعم– الذي يؤثر في توزيع المعلومة هو طابعها المناسب للتنظيم المعرفي الإنساني، أي المعلومات الملائمة .

وضمن التصور المنظومي للسيرورات المفهومية تؤدي الاعتقادات المستقرة في مجتمع ما دورا أساسيا في **المعالجة المنظومية للمعرفة**، وهكذا فإن المعلومات التي تثري أو تعارض الاعتقادات المنظومية الذهنية لها الحظ الأوفر في النجاح **ثقافيا**.وهنا سنكون إزاء منظومات **ذهنية ثقافية**، وتحدد بوصفها: "**منظومات مفهومية تنتج وتنظم وتمفهم معلومات بطريقة اصطناعية من قبل الإنسان**"[59].

V- الملاءمة والبلاغة:

1- استبدال قانون الحرفية بمبدأ الملاءمة:

لعل أهم أثر لبلاغة الملاءمة على تصور اللغة عموما، ومظاهرها البيانية خصوصا، هو استبدال قانون الحرفية بمبدأ الملاءمة. ويسوغ "سبربر" رفضه للحرفية، انطلاقا من أن القول بأن التواصل اللغوي موجه بافتراض الحرفية يجعلنا نعتبر كل ملفوظ ثان استثناء في حين إذا كان يوجهه مبدأ الملاءمة، فإننا لن نجد استثناءات فكل تأويل لفعل تواصل ناجح (الملفوظات بصورة خاصة)، يلتقي مع هذا المعيار[60].

إن افتراض الحرفية افتراض مكلف، ويتطلب جهدا أكبر من افتراض الملاءمة، كما أنه ينتج آثارا أقل.و**مثال توضيحي** يوضح الفكرة: وجه أمينة دائري تماما.

إذا انطلقنا من افتراض **الحرفية**، فإن القارئ سيأخذ بعين الاعتبار أولا المعنى **الحرفي للملفوظ ثم يرفضه**، على اعتبار أن المعرفة المشتركة تنص على أنه ليس ثمة وجه دائري الشكل تماما، ومن ثم يعمد المتكلم للمعنى المجازي، وهنا سيتعرف بطريقة أو بأخرى على **المبالغة (المبالغة في وصف وجه أمينة بالشكل الدائري)**،أي أن وجه أمينة دائري بشكل لافت للانتباه.

إنه يستخدم فقط الفكرة المعبر عنها باعتبارها **مصدرا للآثار المعرفية.** إنه يبني **تمثلا ذهنيا لوجه أمينة،** وهو تمثل يحوي اقتضاءات كافية لفكرة كون وجهها دائري الشكل، بحيث أن الشكل العام فيه درجة لافتة للانتباه **من التساوي والانسجام.** وهكذا فإن الجملة المفهومة على هذا النحو تنتج آثارا كافية، ببذل مجهودات أقل[61].

إن مبدأ **الملاءمة** هو المبدأ الذي يبحث عنه لتسويغ بلاغة الملفوظات والصور. لذلك وضع "سبربر" نظرية للسخرية، قائمة على جعل السخرية ملائمة من خلال **المحاكاة،** مع رفض أن تعبر عن المعنى وضده، كما هو قار في التقاليد البلاغية الكلاسيكية الغربية والعربية على حد سواء. ينجز الملفوظ الساخر ملاءمته من خلال إتاحته للمستمع إمكانية التعرف، أو ربما محاكاة اهتمام المتكلم ب، وسلوكه إزاء فكرة شخص ما[62].

وفي هذا الإطار من الفهم اعتبرت السخرية والاستعارة – وحتى صور أخرى– استثمارات عادية لسيرورات قاعدية للتواصل اللغوي، بدل اعتبارها خروجا أو انحرافا مسننا عن الاستعمال العادي للغة[63]. واعتبر التمييز بين المعاني الحرفية والاستعارية، وغير المحكمة، تمييزا في الدرجة أكثر من كونه تمييزا في الطبيعة، فالألفاظ والجمل لها معنى **حرفي، ولكن هذا المعنى وسيلة للتواصل** أكثر من كونه **محتوى،** فما يتوقعه المستمعون هو أن المعنى الحرفي للجملة سيساعدهم على الاستدلال بأقل جهد على الفكرة التي يريد المتكلم تبليغها[64].

هذه النظرة البلاغية الجديدة لم تطرح على مستوى الصور البيانية فقط، بل طرحت على مستويات عديدة، مثل الأسلوب والصريح والضمني وأفعال الكلام.

هذه القضايا البلاغية المعرفية الهامة سنطرحها في مقالنا المقبل من خلال ممارسات تطبيقية.

هدف هذا المقال إلى شرح مقولة **الملاءمة** باعتبارها مقولة نظرية نفسية ذهنية وإلى شرح امتداداتها المفهومية في مجالات التواصل، والأنثربولوجيا، وعلم النفس المعرفي والبلاغة.بحيث استعرضنا في البداية لمقولة السنن التي استبدلها "دان سبربر" ودايدر ويلسن" بمقولة الاستدلال، ثم انتقلنا إلى النموذج الذي اقترحه "غرايس" باعتبار أن "دان سبربر" و" دايدر ويلسن " نهلا من نظرية غرايس، وبخاصة من مفهوم غرايس، لنتعمق فيما بعد في عرض مفهوم الاستدلال غير البرهاني، ومفهوم الملاءمة بمبادئه، وصلاته الوثيقة بالسياق.

عرج المقال بعدها إلى تقصي امتداد مفهوم الملاءمة في حقل الأنثربولوجيا المعرفية، رابطين إياه بمفهوم "وبائية التمثلات"، وهما قطبا الرحى في نظرية " سبربر" الأنثربولوجية، لننتقل بعدها إلى ربط المفهوم بمفهوم المنظومية المرتبط بحقل آخر وهو:مراكز اشتغال الدماغ وفق نظرية سبربر التي عارضت نظرية فودور، لنختم المقال بربط مفهوم الملاءمة بالبلاغة، حيث قدم سبربر نظرية متكاملة لما أسماه بالبلاغة المعرفية.على أن نأتي في مقال لاحق إلى تطبيقات عملية وتفسيرات لظواهر أدبية ونقدية على ضوء مفهوم: " الملاءمة ".

الهوامش:

[1]-Dan sperber, Deidre Wilson,La Pertinence, communication et cignition, les Editions de minuit , 1989, p11.
[2] - Ibid, p12.
[3] - Ibid, p17-18.
[4] - Ibid, p21.
[5]- Ibid, p22-23.

[6]- Ibid, p27.
[7] - Ibid, p30.
[8] - Ibid, p31-32.
[9]- Ibid, p45.
[10]- Ibid, p63.
[11] - Ibid, p65.
[12] - Ibid, p69.
[13]-Ibid, p70.
[14] - Ibid, p74.
[15] - Ibid, p75.
[16]- Ibid, p76.
[17]- Ibid,p88.
[18] - Ibid,p90.
[19] - Ibid,p92-93.
[20] - Ibid,p104.
[21]- Ibid,p106-107.
[22] - Ibid,p107.
[23] - Ibid,p109.
[24] - Ibid,p112.
[25] - Ibid,p118.
[26]- Ibid,p120.
[27] - Ibid,p237.
[28] - Ibid,p182.
[29]- Ibid,p189.
[30]- Ibid,p208.
[31]- Ibid,p214.
[32]- Ibid,p257-258.
[33] - Ibid,p262.
[34] - Dan sperber ,Rudiments d'un programme naturaliste ,in Michel wieviorka(ed), les sciences sociales en mutation , Editions sciences humaines, p262.
[35]- Dan sperber, La contagion des idées ,theorie naturaliste de la culture , Editions Odile jacob , fevrier , 1996, p09.
[36] - Ibid, p40.
[37] - Dan sperber,L'individualisme méthodologique et cognitivisme , dans R.boudon, f.GHAZEL et A.Bouvier(eds), cognition et sciences sociales , Presse universitaires de France Paris,1997, p127.
[38] - Dan sperber ,Rudiments d'un programme, op-cit , p262.
[39] -Ibid, p262.

[40] - Dan sperber, La contagion des.., op-cit ,p07-08.
[41] - Ibid, p08.
[42] - Ibid, p18.
[43]- Ibid, p71-72.
[44]- Ibid, p75.
[45] - Ibid, p102.
[46] - Ibid, p160.
[47] - Dan sperber and Deidre Wilson, fodor' s frame problem and relevance theory: reply to chiape§ Kukla.Behavioral and brain Sciences19:530-532 , p530.
[48]- Ibid, p531.
[49]- Dan sperber, La contagion des.., op-cit,p177.
[50] -Jerry fodor, la modularité de l'esprit , Essai sur la psycologie des facultés, traduit de l'américain par Abel Gershenfeld , les Editions de minuit, Paris, p62
[51] -Ibid ,p88.
[52] - Ibid ,p92
[53]- Dan sperber, La contagion des.., op-cit,p179.
[54] - Ibid,p185.
[55]- Dan sperber,modularity and relevance:How can massivelymind be flexible and context- sensitive ? in the Innate Mind: Structure and content, edited by Peter Carruthers, Stephen et Laurence Stich.www.dan .sperber.fr/p109
[56]- Dan sperber, La contagion des.., op-cit,p188.
[57] - Ibid,p191-192.
[58] -Ibid,p191-192.
[59] - Ibid,p193-194.
[60]-Dan sperber , Rhetoric and Relevance ,in David Wellbery and John Bender eds,the ends of rhetoric: Hisory.Theory.Practise,stonford university press, 1990, p144.
[61]- Ibid,p144-145.
[62]- Ibid,p147.
[63]- Ibid,p148.
[64] - Ibid,p146.